بيان العقل القادم

كسر إسار الجمود والعصبية

صو د كا

صود کا

استنزفت الدراسات الأكاديمية كل الأبعاد الهامشية للتخلف، واستهلكت طاقات الساعين نحو النماء في معالجة الأعراض لا الجذور.

فليكن. لكننا نُسقط الضوء اليوم على المعضلة الكبرى: العقلية الأولية. ذلك الحصن الجذري الذي يتكفل وحده باستمرار العجز والجمود. الطامة الكبرى تكمن هنا: **ما إن تتصلب عقلية المجتمع على نمط محدد، حتى تستعصي على التغيير، باقية على حالها حتى بعد زوال الأسباب التي أنجبتها.** وهنا نقف نحن؛ التأسيسيون. لا لنراقب، بل لنفحص، ونهجم، ونفرض مسارات تفكير جديدة تعيد أصل العلاقة إلى جذورها الحقيقية: الإنسان، ثم بيئته، واقتصاده، لا العكس".

طالما أُهملت جذور هذه العقلية في ظلمات التجاهل! فنحن اليوم أمام منعطف حاسم: إن أردنا تحوير هذه العقلية الأولية —سواء من خلال محيطها أو سواه— وجب علينا أولاً أن نغوص في جوهرها، وأن ندرك ماهيتها الحقيقية بوعي تام لا لبس فيه.

عقلية الجمود

يولد الإنسانُ بـ "عقلٍ أولي"؛ غريزةٍ متطورة تشكل نواة الإدراك وتتسامى على أنماط التعايش البدائية لدى سائر الكائنات. هذا العقل الأول هو الركيزة التي تُربط بها البديهيات وتُنسج منها معاني الأشياء ومنطقها، لكن الغريزة وحدها لا تصنع المصير؛ إذ يتحول "العقل الأولي" إلى "عقل تأسيسي" عبر الاحتكاك القسري بالواقع. غير أن البناء المؤسسي لا يستهدف هذا العقل بحد ذاته، بل يسعى لترويضه حتى يخضع. الترويض يُحيل الغريزة إلى عقل، والعقل ليس سوى غريزة مُدَجَّنة. العقل الأولي مرآة الواقع المعيشي وركوعٌ تام أمام الدوائر الاجتماعية، من الأسرة إلى العصبية الضيقة؛ إنه المعيار الذي يُسقط أحكامه. وحين تتغذى بنية هذا العقل على الركود والتعصب، يصبح تدمير المؤسسات وتكريس

الهيمنة نتيجة حتمية، ليغدو التخلف نقطة الإعادة والبداية المحتومة لوطنٍ لم يُولد بعد. في المجتمعات النامية، ترتد هذه المرآة إلى أصلها: تسقط المؤسسات في أحضان العصبيات، فينزوي العقل التأسيسي ليحل محله منطقُ الغريزة المُدَجَّنة[1] هذه.

حين تتحول هذه الغريزة البدائية إلى مبدأ مجتمعي لإطلاق الأحكام، نُصادم بنيةً عميقة الأثر التدميري؛ قوةً داخلية مأزومة لا تنتج العجز فقط، بل تُشرعن آليات

---

(1) تداعت الهياكل المؤسسية، وفقدت الدولة صفتها الناظمة، لا يعود المجتمع إلى فراغ، بل يرتد إلى جذوره البدائية العصبوية؛ هنا تتقاطع القضية مع رؤية ابن خلدون في فلسفة العمران، إذ استحال مفهوم الوطنية إلى مؤسسة عصبوية؛ وحين ينحسر وازع الدولة والشرائع، تفضي الطبائع البشرية حتماً إلى أصولها الأولى من التغلب والتوحش تحت أغطية تضامنية زائفة، ومثلما تفهقرت هذه البنى، يلاحظ برهان غليون في نقده للعقل السياسي أن عجز المجتمعات النامية عن بناء استقلالتها المؤسسية يحيل الفضاء العام إلى مسرح تتصارع فيه الروابط الأولية، فتستحيل الدولة غنيمة للعصبية وينحول العقل إلى أداة تبريرية لغرائز التسلط؛ وهي البنية السيكولوجية التي فككها مصطفى حجازي في دراسته للتخلف الاجتماعي، مبيناً أن قمع الإنسان وإحباطه المؤسسي يفرزان شخصية مقهورة ترتد إلى آليات التكيف البدائية والانتماء العصبي الأعمى، محولة الغريزة إلى أداة طواعية في خدمة ثقافة العنف والتسلط.

التخريب الخارجي وتضمن بقاءها. وفي المقابل، تُعيد المنظومة الداخلية تغذية هذه العقلية لفرض رؤيتها أحادية الجانب وتدشين واقع متماثل يُصادر التعدد لصالح عقلانيةٍ مُدَجَّنة.

امتلاك "عقل موضوعي" صلب، أو صهر عقولٍ متباينة، يفرض الخروج التام من البيئة الأم والغوص في تجارب مغايرة. الخبرة المباشرة والمؤثرات القاسية هي ما يقلم الغريزة، وهي ما يشكل العقل الواعي المؤهل لإدارة الوجود. وفي المراحل المتقدمة، يصقل المجتمع السياسي الناجح—ولا سيما المعاصر—عقله الأولي ليتوجّه نحو "العقل التأسيسي": رؤية مروضة، واعية، وركيزة راسخة تبني الدول وتصنع المستقبل. إن القدرة على اتخاذ القرار، وإدارة السلوك، وتطبيق المعرفة والمنطق بفاعلية—عندما تتلاحم مع عقل نقدي يفكك بجرأة ويواجه المسلّمات المكررة التي لا تنتج إلا العجز

والتعقيد—تخلق الفاعلية التأسيسية. هنا، لا يتوقف الفرد عند الاعتراض والنقد؛ إنه يتقدم ليفرض البديل، ويؤسس منظومة متماسكة تبزغ من تجاوز أخطاء الماضي.

الواقع يتغير بالتحشد والتكتل الجمعي. هنا تنبع القوة الصلبة لهذا العقل التأسيسي—العقل الذي يجب غمسه في أطفالنا، أو الاتحاد المباشر مع كل من يحمله.

الحل حاسم ومباشر لا يحتمل الترميم الشكلي لسياسة أو اقتصاد؛ فالمعضلة أعمق من غياب الفكر. إنها اقتران التخلف الفكري بأدوات العصر، حيث سخرت الغريزة العقل لخدمة بقائها. يبدأ المسار بإعادة تأسيس المؤسسات وتطهيرها من التخندق العشائري والطائفي لتبلغ طابعاً موحداً وشاملاً. ولتحقيق هذه الغاية، يجب النفاذ إلى العصب الأساس: الأسرة. التغيير لا يصنعه

الطفل، بل تصنعه المنظومة التي تشكل عقله؛ فترويض الغريزة وصياغة الوعي هما المعيار الحاسم لضمان المستقبل وبناء رأس المال البشري.

هنا تتجلى العقبة الكبرى: كيف نصلح التربية وسط بيئة تكبلها الأغلال وتتسلط عليها العصبية والجهل؟ يستلزم هذا التحدي قيادةً فكريةً واعية تتسامى عن التكسب والادعاء؛ عقولاً تدرك المصلحة العليا للدولة والمجتمع، وتعمل لفكرة التأسيس لا للاستعراض الزائف.

تجذرت العصبية والعشائرية حتى أضحت مكونًا أصيلًا في وعي مجتمعاتنا. لا مفر منها سوى بترك هذه العقلية تتعفن بعيدًا عن تشويه المستقبل. هذا هو الجزء الأشد قسوة. التخلي عن الهمجية العشائرية والبدائية أشبه بمحاولة تأصيل الديمقراطية داخل قطيع من الذئاب،

بعدما غدت هذه العقلية البدائية هي المنطق الأول والوحيد لإدارة العالم.

عاشت جميع المجتمعات عبر العصور بهذه العقلية، وإن اختلفت أوجهها.

الهوة المعرفية بين الشكل المعاصر والمضمون المتحجر في أنماط التفكير

يمارس حكام الدول المتخلفة أدوارًا جافة داخل أنظمة
يجهلون كنهها بلا أي قيمة اقتصادية أو تحسن ملموس؛
أنظمة ليست سوى جثة إرث إمبراطوري سابق أُعيد
إنتاجها بلغة ودساتير عجز "العقل الأولي" عن استيعابها،
ليتربى هؤلاء الحكام داخل بينية فكرية ممزقة تتأثر بالقوى
الخارجية فتبقي عجزهم محصورًا في نخبة معزولة تمامًا
عن واقع طبقات الشعب التي تحمل رؤية مختلفة بينما
يظل ذات "العقل الأولي" متأصلًا فيهم ليتحول سلوكهم

السياسي إلى استعراض محض لـ "التماهي" وتبني نظم "الآخر" العاجزة لمجرد تصنيفها كنماذج متطورة، متجسدًا في تباهيهم المادي في حالة إستعراضية انعكاسية بأموالهم وقصورهم وأفكارهم التجريدية التي تنصبهم في مرتبة أسمى كأداة مادية تشكل وعيهم وعقولهم بينما يستعرضون الثروة والأناقة والرفاهية بلا أدنى مبالاة بالفقر المدقع المتخبط فيه سواهم.

لن تتغير أشكال السلطة ولن تتبدل عقليات حكامها ما دامت الجماهير في مستنقع التخلف غارقة؛ تقايس القيادة والقانون والوطنية بمعايير الرعاع والقطيع. إن سبيل النجاة الأوحد هو التشظي الخلاق والانقسام الحتمي للمجتمع إلى أحزاب جذرية، يمثل كل حزب منها مجتمعاً جديداً بعقول مفارقة. الحزب الأجدر بالبقاء وصدارة المشهد هو وحده من يمتلك العقلية التأسيسية الصلبة ويقدسها، وإن غابت الضمانة المطلقة لنظام مثالي، فحسبنا أنه نظام مغاير يحطم رتابة الاستبداد القديم، حتى وإن تعثر في

تطبيق قواعد الدولة التأسيسية التي تصون إنسانية المواطن وتحمي مقدرات الوطن لا لتخليد الطغاة، بل لأجل الأرض وأبنائها اليوم وغداً وإلى الأبد.

تتجسد السيادة الغريزية في واقع المجتمعات اليوم عبر الفجوة الحادة بين ادعاء الثقافة وممارستها. نحن أمام نمطين من الانفصام الفكري: فئة تُحول الثقافة إلى استعراضٍ زائف وقناع لكسب الإطراء وتحقيق التعالي الطبقي دون تبني الفكرة كمنهج حياة، ومجتمعات تترسخ فيها نزعة عدمية تجاه الحياة لا تحركها إلا أدبيات التباكي والجمود. في الحالتين، تتحول الثقافة إلى زيفٍ مظهري وسلوكيات هشة تغطي على غريزة بدائية تسيطر على اللاوعي الجمعي. تكتفي هذه الأفكار بكونها مجرد عقل خارجي وأداة صورية للنجاح العابر دون أخذها على محمل الجد، فالعقل الأساسي الحاكم لا يزال محصورًا

في العصبية والقبليّة. السبب يعود للتربية والنشأة التي تُحشر قسرًا في ذهنية مجتمعاتنا، وهنا تحديدًا يتجسد "التخلف العقلي."

الأفكار بلا قيمة ما لم تتجذر في الوجدان وتتحول إلى سلوك يومي، وليست ثوبًا طارئًا يرتديه الفرد ويخلعه بمشيئته. تغيير الواقع يتطلب تبنيًا كاملاً للأفكار التنويرية والعيش وفق مقتضياتها لاقتلاع جذور العقل البدائي والبيئة التي تغذي الغرائز وتكبل الوعي. تشكل ثقافتنا البنية الأولية لعقولنا، مخلفة مستودعًا من القيم والمنظورات الصلبة العصية على التطور، إن ما نشهده اليوم ليس سوى النتاج الحتمي لخراب ممنهج؛ تفرخه مدارس العفن، وتغذيه سلطة أسرة ومجتمع تمرسوا على اغتيال عقلية الطفل وتدجين براءته.. قواعد المواجهة؛ إصلاح التعليم.. ليس مجرد ترميم تجميلي، بل هو

مبادرة استئصالية ترفض التردد، وتنسف جذور البلادة المعدية التي تحاصر العقول. والتحرر الفكري؛ انطلاق حصري لفردانية واعية، وارتقاء صارم يرفض الترويض والتدجين . والحقيقة المطلقة، حقائق صلبة لا تحابي أحداً، ولا تعترف بأنصاف الحلول، ولا تهادن واقعاً هزيلاً. لا تسوية مع الضعف، ولا رجعة عن كسر القوالب القديمة.

يجب تربية الأطفال وفق آليات "بديهية مستأصلة"؛ عبر قطع دابر كل أشكال التلقين والتأثير المحيطي. لهذا، تفرض الضرورة عزلهم في مدارس داخلية خاصة، بعيداً عن الأسرة ومرض الشوارع المتفشي المتمثل في التخلف الاستعراضي، وصولاً إلى انتقال جذري نحو ثقافة النقد والمعايشة، متلاصقةً مع ثقافة الإنتاج والمقايضة.

يتخذ التمكين الواعي للبيئة العقائدية والأولية—تلك الغريزة المتأصلة في اللاوعي الجمعي المتعصب—طابعًا رقميًا تحريضيًا. وفيما يخص تعصب الأطفال، تبرز المقولة الشائعة: «الآخرون يلدون أبناءً، أما نحن فنلد أجدادنا». بنظرة تفكيكية لواقع هذه المقولة، نجد شبكة الإنترنت مشحونة بأساليب التحريض التي تتسلل إلى منصات الأطفال لترويض غرائزهم وتوجيهها نحو نمط عقلي محدد. أفلام الكرتون والأنمي والأنشطة الرقمية تُستغل كأدوات لترويض غريزي بدائي، وهو ترويض باطل ومصيره الفشل كسابقاته، لكنه غرس متطرف يستهدف المجتمعات النامية تحديدًا دون المتقدمة. ترافق هذه الظاهرة آليات مجتمعية تعزز العصبيات الثقافية والتقليدية، ناجمة في الغالب عن الخوف والتوجس مما قد تتركه هذه المشاهد الرقمية في نفوس الأطفال.

وجوب تفكيك المعتقدات السائدة واستئصالها؛ باعتبارها آفةً ترسخ الوهم بالصلاح، وتدجن العبد لصالحة سلطة استبدادية ونظاماً مجرداً من الإنسانية. المعتقدات ليست مشكلة بحد ذاتها؛ بل تكمن الأزمة في طريقة تلقيها وجعلها أولوية مطلقة في ظروف تحتم تقديم التغير الاجتماعي.

حين تتحكم المعتقدات في أولويات المجتمع، فهذا إعلان صريح بالاستسلام للمصير، وإغلاق تام لباب الأمل في أي تغيير أو تجاوز للنظام السائد. هذا النظام العصبي المتأصل في بنية الطائفة هو المولد الأول لأزمات المجتمع وبلادة العقل البدائي؛ إنه ينسخ المنظور الفطري للفرد ليحيله كائناً مشلولاً، عاجزاً عن التكيف مع واقع يتبدل بلا توقف. ولئن منح الدين تماسكاً تاريخياً للمجتمعات، فإن الأمم الحية سحقته حتى الاضمحلال—رغم بقاء رواسبه. أما المجتمعات العاجزة،

فبدلاً من ترويض هذا العقل الأول، تواصل تكريسه خضوعاً للضغوط واستسلاماً للحتّميات.

لا تسألوا عما يأتي بعد الخراب..

كيف ننتشل عقولنا من هذا الخراب؟

إن قوى الاستعمار الغاشمة لم تفعل سوى أن استباحت الأرض واستثمرت في تعفن عقلية البداوة والعصبية الراكدة، تلك التي وقفت عاجزة بلداءة أمام زحف المتغيرات. لقد خلفوا وراءهم طوفاناً من الخراب؛ دمروا الاقتصاد، عبثوا بالبيئة، وشرذموا البنيان الاجتماعي حتى بات كل شيء رماداً يذروه الريح. فبأي منطق تُبنى

دراسات الاقتصاد أو تفكيك التخلف الاجتماعي على عقل مخرب عجز عن شق طريق بديل، عقلٍ بات يراهن على المجهول ليس طمعاً في إصلاح وهمي، بل هرباً نحو خراب جديد لم تعرفه البشرية من قبل؟ ماذا عن العقلية التأسيسية إذن؟ تلك التي تدرك تمام الإدراك أن الغريزة الإنسانية واحدة لا تتبدل، لكن الأفكار هي ساحة المعركة والفيصل الحاسم!

إن العقل التأسيسي لا يستجدي الإصلاح، بل يجتث الجذور، يرفض المساومة على الفتات، ويعيد كتابة القواعد فوق أنقاض الواقع المنهار. لا مجال للتردد..

ولتحقيق ذلك، تتشكل نخبة العقل المؤسسي من ثلاث طبقات متكاملة: تتولى "الجمهور الواعي" الاختراق الجماهيري؛ تسود على القطعان المسكونة بالغريزة

والأنظمة القائمة، وتتقن توجيهها دون أن تدري. وتليها "الطبقة المتوسطة" لتضطلع ببناء العقول وتجذير الفكر عبر الامتداد والتمكين، مترفعةً عن السجالات العقيمة التي تتغذى عليها أوهام الجماهير المغلوبة في عالم تحكمه الغريزة العصبية. وتتوج هذا البناء "النخبة العليا" التي تسخر كافة مواردها لتأسيس قنوات تعزز هذه العقلية، وتفرض سيطرتها على أدوات إعادة الإنتاج الإعلامي والبروباغندا، لتمكين الطرح الفكري وترسيخ سلطة الطبقة التأسيسية في توجيه الأمة ورسم مصيرها.

هؤلاء هم العقلاء التأسيسيون؛ لا يهدرون الموارد والقوة في مواجهة العواصف، بل يفككون شفرتها للعبور نحو ضفة الإشراق. إشراقٌ ليس مجازاً، بل التزام صريح تجاه الأجيال القادمة: أن نعبّد لها طريق النجاة من بين ركام العصبيات وقوالب الوعي الزائف

البنية التحتية الحقيقية لأي مجتمع لا تقاس بالأسمنت والحديد، بل تبدأ من الطفولة؛ من اللحظة الأولى التي يُشكل فيها عقل الطفل وتُغرس في وجدانه بذور الرفض أو الخنوع. إن تدمير هذه البنية يبدأ مبكراً، عبر تلقين القهر الأسري ومؤسسات التعليم البليدة التي تفرخ أجيالاً من العبيد المبرمجين على الطاعة العمياء. لا يمكن بناء مجتمع صلب وفردانية واعية طالما أن الطفولة تُستباح وتُدجن باسم الأعراف والتقاليد البالية. إن إنقاذ البنية التحتية للمجتمع يبدأ بتحرير عقول الأطفال من قيود الترويض، واجتثاث العنف الممارس على براءتهم، لبناء إنسان جديد يرفض الخنوع ويحطم قوالب البلادة من جذورها.

المحتوى الاستهلاكي للطفل—أدبًا، وقراءةً، وترفيهًا—هو مركز الثقل الأول لبناء وعيه. إلقاء كتاب عشوائي بين يديه

ليس حلاً؛ المبدأ هو ترسيخ حرية التفكير، والوالدان هما مرآة هذا الانبعاث الفكري. القراءة الجادة، الحوار العائلي العميق، اللعب الفطري، والإبداع الخلاق: هذه أدواتنا لفرض سيادة نمط مرن يسمح لنا بترسيخ معتقداتنا التأسيسية في عقولهم. الضبط السلوكي عند كل منعطف عقلي، وإرساء نظام صارم لا يعرف التهاون—بلا قسوة أو ضرب؛ فالضرب أداة هدم مرفوضة—هو الفيصل. يلتزم الطفل بقانون حاسم يربط عقله بالانضباط ويوجه طاقاته نحو الأسامي والأبقى.

ولد الطفل على فطرة التعبير الخالص. طال عهد حشره في قوالب المجتمع الجاهزة التي لا تجند سوى بيادق هشة لا عقل لها، بغض النظر عن جنسه. العودة للفطرة تكمن في التعبير الحر: أن يضحك وينعم بالفرح بعفوية مطلقة، ويحدد بنفسه استجابته لمسببات فرحه؛ مسيرًا بإلهامه الداخلي لا بالتوقعات المجتمعية.

وإرغام الأطفال على الاندماج الاجتماعي غريزة بدائية متفشية تُذكّيها العولمة بتنميط المدارس وتوظيف شبكات التواصل لتدجين الجيل. هذه التحولات تُدمّر المجتمعات الحبيسة في العقليات البدائية، وتُغذّيها أطماع الأسر في ضمان النفوذ. نحن أمام غريزة تتطلب التهذيب لتتحول إلى عقل وثقافة تُزرع في بيئات تُكبّلها الأوهام والأحكام المسبقة والطائفية؛ بيئات تَرى في اختلاف الطفل نذير شؤم رغم أنه حقّ أصيل. لن يستسلم الطفل لإملاءات القسوة؛ بل سيعتصم بأفكاره. المخالفة ليست عزلة، بل هي القدرة على إدارة التنوع بحكمة. هنا يستيقظ العقل ويرتقي بالتعاطف من انفعال غريزي إلى وعي أصيل.

إن سيطرة الأطفال تكمن في الفضاءات الرقمية والألعاب؛ هناك يجب أن نتخلل للاستعراض والتكذيب لكل ما لا يوافقهم وضد ثقافتهم، لتسهيل التغيير

والتدجين لصالحنا، وتشكيل وعي يقود العاطفة باقتدار.

هكذا نبني عقلاً تأسيسيًا صلباً يغير الواقع بفاعلية، بلا اتكال أو خضوع، ويسيطر كلياً على مقومات النهوض.

نحن نصنع نظامًا مفتوحًا يتكامل مع أفراده لتبديد الهيمنة المؤسسية الخانقة.

هيمنة الاستثمار الأجنبي وانحسار الإنتاج المحلي في الدول النامية هما العرض المباشر لاختلال اقتصادي هيكلي جذره العميق هو نمط التنشئة الأولية ورؤية المجتمع للطفل؛ حيث يُختزل الطفل داخل المنظومة القبلية إلى مجرد أداة لحماية العصبية والموارد، في انحدار قائم على "عقلية ريعية دفاعية" تبدد رأس المال البشري وتقتله في مهده. النهوض الاقتصادي لا يبدأ من الأرقام،

بل من نسف هذه العقيدة عبر توجيه الاستثمار نحو الطفل بعقلية استراتيجية يصممها عقل تأسيسي لتعظيم العائد الإنتاجي، فبناء اقتصاد صلب يستوجب الانتقال الحتمي من الاستهلاك والارتهان للعولمة إلى استقلالية سوقية تكبّر كفاءة الإنسان وحده.

انظر إلى دول الفائض النفطي: بقعة تفيض بالمال ومع ذلك تسابق الزمن عبر استعراض انعكاسي يفتقر للجوهر الأصيل؛ المشهد أشبه بطفل غني يشتري كل الألعاب وكل ما يثير انتباهه من أولئك الأطفال الذين يصنعون تلك الألعاب حقاً، لكنه لن يستطيع أبداً أن يشتري مهارة الصانع ولن يحاول، لأن عقليته الأصلية تظل حبيسة العصبية الريعية، وعنوانها الأبدي: "أعطني لا لأتعلم وألعب، بل لأترشح وأستعرض".

انظر إلى دول الفائض النفطي: بقعة تفيض بالمال، ومع ذلك يعيش بعضها في فوضى عارمة، وفقر، ومعارك، غارقاً في أساليب حياة مستوردة ومقلدة لا تغني نفعاً ولا تخلق

مجداً إلا لصانعيها، بينما المفتاح الذي يُهذب الأوضاع ويفكك التشابكات عند تقلبات الأحوال الاقتصادية كامن في أرضها.

إعادة صياغة البديهيات الأولية في الطفولة هي السبيل الوحيد لسحق النزعات الاستعراضية في الثقافة، العلم، السياسة، والاقتصاد. غير أن البيئة تقف بالمرصاد؛ إذ يحاصر الطفل جيش جرار من الأسرة، والمجتمع، والإعلام، وقنوات تدعم سلطة عمياء لا تخدم عقلًا إبداعيًا يتعامل مع الخرائط كإنجاز نحو أرقام منظمة واقتصادية تقدس المفاهيم الجوهرية فوق كل اعتبار. مواجهة هذا القمع تتطلب ترسيخ المساواة، والتقبل، واحترام حقوق كل فرد يقطن الخريطة، وكل طاقات المجتمع التي تصنع الرقم وتدفع عجلة الإنتاج. إن هذا التحول الجذري وحده يكفل بناء عقل يرفض الاستعراض، ويؤسس لوعي جماعي حر لا ينكسر أمام قوالب السلطة البائدة . الحل هو توجيه كل الطاقات الإعلامية نحو

الأطفال، بغض النظر عن الردود المعاكسة للمتطرفين والمتخلفين المتمسكين بالعقلية العصبية. محاورة هؤلاء وصياغة النظريات مجدية نعم، لكن الأهم—وهو ما يغفل عنه الساسة وذوو التوجهات المتحررة المدعية للتنوير لسطحيتها—يكمن في تركيز كل طاقاتنا على الأطفال والسيطرة على مراكز تنشئتهم: الرقمنة، المدارس، والكتب.

تتأثر الحضارات بعضها ببعض، غير أن التمسك الأعمى بالعادات والثقافات لمجرد التمسك — كما يفعل من يعزلون أنفسهم في حالة حرب — يمنح الخصم فرصة استغلال تلك الرابطة الرجعية لصالحهم. إذن، فالمعادلة الحقة تقتضي أن تخلق وطناً ومجداً بالاستناد إلى الأدوات الصلبة من علوم واقتصاد، لتأتي الثقافة المحلية بعدئذٍ في مرتبة تالية؛ هذا هو التوازن والأساس الفكري. ومن هنا يتأتى التغلغل عبر الاقتصاد، والموضة، والترندات لترسيخ

عقلية وسطية تتمرن على هذه الوسائل، لنبدأ حينها بتأسيس مشاريعنا نحو عقل جاد يتسلل بلا وعي إلى غريزتهم الأولية — أي العصبية — ليحل محلها، أو يندمج معها

شرطة الغريزة

البنى الاجتماعية والطبقية والتعليمية عوائق، لكن الخطر الأكبر هو تسلل العدمية والاستعراض الفكري بين الأدعياء. اللانجانيون والعدميون نتاجٌ صريح للانكسار النفسي والضمور العقلي الناجمين عن الفشل التنموي وتغييب العقل. لا تُبنى الدول ولا تستقيم المجتمعات بأسرى يقتاتون على الاستسلام ويصادرون العجز كإنجاز. العالم لا يحتاج أعداداً بشرية، بل منهجية صلبة تروض الغرائز وتوجه العقول نحو غايتنا القصوى: ترسيخ وعي وطني جامع في صلب المجتمع. فالتاريخ لا يكتبه المنتصرون، بل تصنعه الجماهير؛ هي المحرك الأول والمسؤول المطلق عن تشكيل مصيرها.

نرفض الارتهان لغريزة التخلف، ونرفض تقديس الجهل؛ إن العبور إلى المستقبل لا يتحقق إلا بقطيعة حاسمة مع الترويض الفكري، وبناء عقل جديد يفرض وجوده وقدرته الحتمية على الإنجاز. هذا العقل، رغم تفرده وسط بيئة مترهلة، هو الرهان الأوحد لتغيير المجتمع وقلب جذري لطريقة التفكير؛ بل إنه يصبح طاقة مدمرة وفعالة متى اقترن بقابلية التأثير والتحريض المطلق[2]. لا مساومة، لا مهادنة، ولا طريق سوى الهدم الشامل لأوهام الماضي وفرض الواقع الجديد بالقوة الفكرية الصارمة.

---

(2) قابلية التأثر في مجتمعات التخلف؛ الوطنية في مجتمعاتنا الإفريقية مجرد وهم جوفاء، وقابلية الهيجان الجماعي لأجل السياسة والقومية والوطنية غائثة تماماً ومنعدمة الجذور؛ فلا حماس يشتعل للأوطان، ولا عقيدة سياسية تحرك الساكن أو تُشعل الغضب. إنها بلادة مجتمعية مطلقة؛ ترقد فوق رماد خامل، وتستطعم الذل بكل طمأنينة، وتتفرج على أوطانها تُنهب وتُداس دون أن يرف لها جفن أو يهتز لها ضمير. لا قومية تجمعهم، ولا سياسة توقظهم، بل رضوخ تام وبلادة متأصلة تستعصي على كل محاولة إيقاظ، وتتحطم على صخرتها كل شعارات الانتماء الزائف.

صار التعليم، في العالم بأسره، مشقة واستعراضاً؛ إذ هيمنت العولمة على أنظمة الإنتاج وعقول الأفراد[3]، محولةً الوعي إلى مجرد حيز يبحث عن صدى داخل نظام عالمي تافه. لقد اقتحمت العولمة العالم واعدةً بمساواة اقتصادية ومعرفية، متجاهلةً أن بنيتنا الداخلية لم تستوعب بعد أسئلة الحداثة. تُلقى الأفكار الروسوية والماركسية في عقول قاصرة لم تدرك آفاق التفكير الأخرى ولا أبعاد التطبيق العملي، إذ لم تتجاوز إنسانيتها بدائيتها المحضة؛ فتحولت التجارب الكبرى إلى مهزلة وفشل مطبق. هكذا وجدنا أنفسنا أمام مشهد سريالي تتجاور فيه السيارات مع الجمال، وتحلق الطائرات في سماء تعيش أسطورة من يحاول القفز من الجبال.

---

(3) ما فرضه منطق السوق كمعيار جديد للتربية والعقل ليس سوى استنساخٍ لما كشفه "بيير دونو" و"كريستيان لافال" في كتابهما "الطريقة الجديدة للعالم".

في المجتمعات الطائفية والعصبية، انحط التعليم ليصبح عملية بدائية تُشرعن العقل الغريزي. هنا يتملك المعلم طلابه باعتبارهم "أبناء القرابة"، مستخدماً القوة لغرس التعاليم بالحفظ الأصم لا بالتنوير، لأن غاية العملية برمتها هي خدمة المتسلط. يُقذف الطفل إلى المدرسة مبكراً ليحفظ صكوك وشروط العصبة دون إدراك لمعناها، متجرعاً قاعدة وحيدة: العلم هو التكرار الأعمى، ومخالفة الحرف تعني العقاب. النتيجة المفجعة لهذه الهندسة التربوية تتجلا في ذلك "الجلد النفسي المروع"؛ فحين يفشل الفرد أو يتعثر في مادة، لا يواجه مجرد رسوب أكاديمي، بل ينهار في حالة من الاكتئاب والقهر والتجويع الذاتي، معلناً انهياراً نفسياً تاماً. لقد تحول السوط الخارجي للجلاد—بفعل التهميش وضغط المجتمع—إلى عذاب نفسي داخلي تفتك به الذات بلا رحمة، خوفاً من عار الطائفة وتهديداتها الوجودية.

تؤكد المشاهد الحية فصولاً من البشاعة يعيد الطلاب إنتاجها حتى في مراحل متأخرة؛ حيث يتحول التعليم إلى ركض محموم نحو النجاح السريع. وهنا يكمن الداء الأكبر المترسخ في بنية العصبية المنغلقة داخل مجتمعات مأزومة اقتصادياً ووطنياً ومعرفياً: إن التعليم المعاصر الذي فرضته العولمة جعل اللغة الأصلية بلا جدوى، بينما لغة التعليم الأجنبية لا تُراد لذاتها، بل بوصفها "بطاقة عبور" تضمن مكاناً في أعلى تراتبية الشبكة العصبية الحاكمة.

يحفظ الفرد المادة لا ليفقهها، بل ليجتاز الحدود نحو مرتبة تنجيه من شبح العقاب الجسدي والنفسي المتجذر منذ الطفولة. هنا تُختزل المعرفة في حسابات جافة مجردة من العقل، تُوضع في ميزان يقيس كم يبعد المرء عن العفن في قاع الدائرة العصبية؛ تلك الدائرة التي تُطلق على نفسها زيفاً اسم "وطن"، بينما هي مجرد جماعات متراكمة في كيان فارغ يحكمه عقل غريزي أصم. وبينما

تبدو هناك فئة تتعلم لتحقيق أحلامها وتأكيد ذاتها، فإن هذه الواجهة لا تحجب الحقيقة النفسية الأعمق: التعليم هنا ليس سوى عملية هروب من وضع بائس إلى آخر.

في عموم العالم، تظل العلوم مادة دسمة تتفاوت مراتبها، حيث يتربع "الطب" مثلاً على قمة الهرم. تلتقط العصبية أي "موضة علمية" أو تخصص يثير هلع حكامها، لتسخيره كأداة تنقل أفرادها نحو الأعلى، متوسعة في مجالات العمل حصراً بغرض الربح والمقايضة مع الخارج. غير أن التعدد المعرفي يظل خارج نطاق التفكير تماماً؛ لأن سيد العولمة الخارجي لا يريد سوى عمال لا مفكرين، ولا مكان لمن يؤسس مدارس فكرية للنقاش والتمرد. القاعدة الصارمة هنا هي: إذا أردت النجاة والخروج من جحيم قريتك أو أسرتك المتعصبة، فلا أمامك إلا الالتصاق بمسار عملي واحد وحيد—مسار

يُفصل خصيصاً ليخدم مصلحة السيد الخارجي وحاكم الطائفة في آن واحد.

لا نهدم قانون التعلم بأسره؛ بل نكسر خموله الذي جبل العقول على الطاعة المطلقة والتدجين. التعليم الحالي لا يصنع بشراً، بل يروض أذهانهم كالحيوانات الأليفة. ولإحداث الزلزال المطلوب في مسار العقل—من عقيدة التلقين إلى عقيدة التأسيس—يجب اقتلاع جذور المناهج الميتة التي لا تُحرك ساكناً، واستبدالها بما يوقظ الفطرة ويشعل التساؤل. ركن التغيير الجذري؛ الفلسفة في جذور الطفولة، إرسال الفلسفة إلى المرحلة الابتدائية. هنا يكمن حجر الأساس الصلب الذي تعجز مجتمعات التخلف عن إدراك مداه أو استيعاب أثره الحقيقي في قاعدة الهرم التعليمي.

في هذا المناخ، تحولت "القراءة" إلى مجرد سمر فارغ لمجموعة تتسلى بالحديث، أو وسيلة استرخاء لأناس

يفتشون عن نغمة جميلة تداعب آذانهم قبل النوم، هرباً من كابوس الواقع وحتى لا توقظهم الأحلام. تقتات كيانات العالم المتخلف على القراءة بما يناسب طباعها الانعزالية؛ فقد تحولت السوق والمطابع إلى ما يشبه "دور عجائز" لترويج الحكايات.

إن مشاهدة مجتمع يعيش فوق كومة من القاذورات والخراب بينما يستهلك الروايات العاطفية والفانتازيا لهو أمر يثير الضحك والحزن معاً. إن تجارة كتب الحب والروايات الغرامية تحقق أرباحاً آمنة في سوق يتلاشى اقتصادها يوماً بعد يوم. إننا هنا لا ندين الأدب العالمي في ذاته، بل ندين "استهلاك الوهم"؛ فحين يُهدر المال العام والخاص على طباعة وشراء الهروب الخيالي، فإننا نشارك عنوة في عملية إبادة العقل. هكذا يعود العقل الغريزي العصبي إلى سيرته الأولى في كهوف التاريخ: جلسة مظلمة تروى فيها القصص وتُرسم على الجدران

عواطف الاستهلاك والوجع. إنه عقل اضمحل حتى عجز عن أدنى أفعال البراغماتية، فلا يعرف كيف يفتح "علبة" واقعه، بل يهرب إلى حكايات الفراق والروايات التي لا تمنح غريزته اتزاناً ولا وعياً، بل تزيد من تخدره وغفلته.

إن الأدب، في جوهره، يظل تحفة فنية تتربع في القلب والعقل البشري، والكتابة فعل وجودي لا يُستهان به. غير أن اشتباكنا مع "كتابة الواقع" يتطلب رفع سقف الوعي بعيداً عن متاحف الأجساد الراكدة. العجب من هذا المشهد العبثي: ترى الناس ينقسمون بين كاتب يمجّد قصص الأجداد، وآخر يجتر الأساطير والخرافات. لقد بلغ العبث ذروته حين صار البعض يكتب روايات خيالية وأسطورية ترقى في هشاشتها إلى مستوى "حكايات الجدة الملعثمة" بعيداً كل البعد عن رحاب الأدب، ثم يحاولون تسويقها كوقائع حية مفصلة لشخصيات وهمية لا وجود لها إلا في المخيلة المريضة.

الشراهة في التهام هذه الكتب وأشباهها داخل عالم المتخلف لا تفسر إلا شيئاً واحداً: اضمحلال العقل الكلي وتحوله إلى مجرد غريزة عاطفية عمياء، معلنة بذلك وصول الوعي إلى أقصى درجات التبلد المعرفي والنقدي.

وهناك نمط آخر يكثر من القراءة يؤكد ذات الوجه: إنه فرد ينتمي إلى طائفة لا تعرف القوانين ولا المساواة، بل تبعد عنهما بعد الأرض عن الشمس، طامحاً إلى وجود وأثر فعلي. وحين يتعلم القراءة مستنداً إلى حشو الكتب التشريطية البديهية التي تشربها في طفولته، يبدأ رحلته باحثاً عن إجابة لسؤال: كيف تتعامل مع عالم فوضوي؟ يلتقط كتاباً مثل "كيف يراك الآخر مهيباً؟" ويقرأه بنهم، لأن غريزة السيطرة والإخضاع تحثه على النجاة في عالم تحول فيه العقل إلى غريزة، بفعل آلة أشد قسوة من الفرد؛ أعني آلة الطائفة العصبية وأفرادها الذين يُعاملون كقطع

تيار تجرف القوارب في الأنهار، لا كبشر لهم الحق في العيش والاختيار.

هنا يبحث—بوعي أو بغير وعي—عن طريقة للتكيف مع هذا الجحيم، فينقاد وراء ما يُسمى "كتب التنمية البشرية"، والأحرى أن يُطلق عليها "أساليب البقاء في عالم القهر". يدخر أمواله لشرائها، وتتاجر المطابع بها لأنها جزء من حلقة العصبية التي ترتدي رداء الوطنية الوهمية. ومن باب الاستفادة المادية، يطبع هؤلاء السادة للقاع الفوضوي كتباً تشرح لهم أساليب البقاء، غير مدركين أن تبديل الغريزة بما يتناسب مع أهواء تلك الكتب يتطلب ما هو أكثر من نصائح كتبها كاتب يعيش في بيئة مختلفة، وعالم مختلف، وعقلية مختلفة تماماً.

إن اضمحلال عقولهم وتحولها إلى غرائز قد نجح عملياً بدعم عوامل شتى: اجتماعية، واقتصادية، وأنماط متوارثة للأفراد والأسر. إنهم يقرؤون هذه الكتب لمجرد النجاة

الفردية، لكن النجاة الحقيقية وإحداث أي تغيير يتطلبان قوة أعظم بكثير من تلك القوة التي روضت عقولهم وأخضعتهم. على النخبة ودور النشر التثقيفية الخاصة كسر طوق الاستهلاك؛ إما بتقليص حجم الكتب الروائية، أو تأسيس دور نشر مستقلة وجذريّة، منفتحة على كل نص غير تقليدي، يثير الجدل لا لأجل الصخب، بل لمخاطبة العقل وإيقاظه.

الترجمة وحدها لا تكفي؛ بل المهم هو: ماذا عن المجتمع نفسه؟ وكيف نصنع عقلًا ينتج أسئلته لا يتلقاها فقط؟.

استيراد الفلسفة الغربية هو استنساخ لتجربة شعوب أخرى. شعوب العالم النامي لا تحتاج إلى مستوردات ذهنية جاهزة، بل إلى فلسفة تنبع من قلب معاناتها، وتُكتب انطلاقاً من واقعها، وتنتقد بنية مجتمعها بأدوات تخصّه وحده. فلاسفة الداخل ومثقفوه، الذين لا يرحمون الجمود ولا يبالون بأغلال التخلف، هم طوق النجاة.

الترفيه حاجة بشرية فطرية، لكنه في واقعنا المأزوم تحول إلى طاغوت يُقايض الوعي بالوهم. في العالم المتخلف، لا مكان للتوازن؛ بل يتضخم اللعب ليطغى على العمل، ويغدو معياراً للتقييم الاجتماعي، كأننا أسرى في مدرسة ثانوية أبدية لا تنضج أبداً. إن العولمة لم تخلق التفاهة، بل رفعتها على عرش الأفضلية؛ حوّلت الاقتصاد والحياة بكل أبعادها إلى مجرد صدى للعبة وامتداد لطقوسها العبثية. يُهدر ملايين الدولارات وتُستورد الكوادر والنخب من الخارج لتكريس الهيمنة، بينما يرزح القاع تحت وطأة الفقر وفقدان الهيبة والكرامة.

تُبذر الأموال بلا رادع في مشاريع وُجدت للترفيه، فاصطنعت منها أدوات خبيثة تخدم السيد الخارجي

وتنعش اقتصاده على حساب شعوب أنهكتها العاطفة واستنزفها التغريب. هذه الوسائل الترفيهية الاستهلاكية تدمر العقل وتغتال ملكاته؛ إنها تخاطب الغرائز البدائية المرتبطة بالعصبية وحدها، وتلغي أي حاجة للقدرات الذهنية العميقة. تستحوذ على ما تبقى من عقول منجرفة نحو الاضمحلال، لتصبح الأداة المثلى في يد السلطة والسيد الخارجي لإحكام السيطرة. المشكلة الحقيقية ليست في الترفيه ذاته، بل في جوهر الأزمة حين نراها بعين الحقيقة من زاوية الفرد: هوس شامل وخلل يغتال كل شيء.

رغم مقاومة الأفراد الخجولة لبعض وسائل الترفيه وانقيادهم الأعمى لغيرها داخل سجن العصبة، تتوارى خلف هذا التخبط شبكة معقدة من الجذور الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وأعظمها شأناً هو البعد النفسي العضال. تُصاغ أدوات الترفيه الوافدة وتُهندَس لتتسلل إلى العواطف،

مصوّرةً نفسها على أن لها وحدها الحق المطلق في استنزاف طاقات الإنسان وإهدارها بلا رادع. من هنا يتولد الهوس الملعون؛ من عقلية العصبيات التي تعلّق كل شاردة وواردة لتجعل منها رمزاً مُقدساً يرفعونه لخدمة غايات أعظم تروجها الطائفة تحت ستار دوافع ثقافية ودينية. ليست العبرة بالوسيلة، بل بالنتيجة الحتمية المرعبة: استلاب كامل يبتلع أكثر من نصف المخزون العقلي وطاقة التفكير للأسرة برمتها، محولاً إياها إلى وقود لأوهام لا تنتهي.

غير أن ردة الفعل العكسية للجمهور لا تنفك تتعزز وتتغذى على تلك المبادرات الأولية —وهم أيضاً ينالون النصيب الأكبر في تعزيز وسائل الترفيه بعد أولئك؛ وليسوا أبرياء، بل يكادون يتخذونها عقيدةً —إن أمكن— أو أسلوب حياة، بما تفرضه تلك التأثيرات من أعراض جانبية. والتي أطلقها حكام الطائفة وشركاؤهم

الخارجيون؛ ليُطوَّع الترفيه بما يتماشى مع قاعهم داخل أسوار العصبية المظلمة. وفي المقابل، تتخذ النخبة المهيمنة—أهل الحظوة والدرجات العليا—من هذه الأدوات سياجاً منيعاً يحجب عنها شبح النقد، ويمنع العقل من التحرر أو الارتفاع فوق ركام القاع. إنها شبكة متكاملة الحلقات، تقتات أطرافها بعضها على بعض، وغايتها النهائية الكبرى: إغلاق العقل أمام سبل التطور برمتها.

إن الترفيه ليس نافذةً عابرة للترويح، بل هو الحصن الأخير لتمرير البروباغندا التأسيسية. حين يصبح التسلل ناعماً، ويغدو التأثير عصياً على الصد، تتكسر دفاعات الجماهير أمام سحر الصورة ورونق الحكاية. نحن لا نواجه هنا آلة هدم عمياء، بل حلاً استراتيجياً صامتاً؛ أداة تتخلل البنيان الفكري للعقول بلا ضجيج، لا لتعبث بالثوابت بالعدوان، بل لتُعيد هندستها من الداخل باقتدار. إنها القوة التي لا تقاوم لأنها لا تُظهر عداءً، والحل الأجمل حين يُصاغ

الوعي الجديد في قوالب المتعة، ليقبل الناس تغيير معتقداتهم طوعاً وهم يبتسمون.

ولعلّ هناك من يعيش الفكرة حقاً، بعيدًا عن الاستعراض، مُكرّسًا عقله ومستقبل أطفاله على حساب غريزته وعشيرته، لينحاز لمن يشاركونه الرؤية والمسار؛ فهؤلاء هم العشيرة الجديدة التي تتكتل تحت راية العقل القادم.